الوفاء

ترك جاك المدرسة حاصلاً على شهادته التي تخول له حق الاشتغال بمهنة طبيب – وكان عالي الهمة كبير النفس وجد في الطبقة الراقية من الحكماء فراغاً كبيراً أراد أن يشغل جزءاً منه فاندفع الى العمل بجد ونشاط واختار مصيفاً يذهب اليه كل مريض وكل ذي علة لتبديل الهواء مقراً لاقامته نافياً نفسه بين هذه الفئة البائسة من الناس لعله يمكنه ان يخدم الأنسانية خدمة حقيقية

وكان جاك اذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمره حسن الشكل لطيف المعشر سامي الأخلاق ماضي العزيمة شريف النفس اشتهر بجمال أخلاقه واخلاصه في مهنته ولذا لم يتعب كثيراً في نيل ثقة عدد ليس بقليل من أهل المصيف . وتصادف أنه دُعي ذات صباح لعيادة فتاة كانت مصابة بداء من اشر الادواء وهو التدرن الرئوي في الدرجة الثانية . فأخذ يعالجها وهي مرة تتمثل نحو الشفاء فيسر ويفرح ومرة يستعصى الداء فيرجع مقهوراً حزيناً

وقد رأى جاك من أخلاقها العالية ومبادئها السامية وجمالها النادر وصبرها على احتمال ما بها ما جعله يأسف على شبابها ويحزن مخافة ان تنالها يد المنون وهي في عنفوان صباها لم تتجاوز الثانية والعشرين ربيعاً

فاهتم لها اهتماماً زائداً وكرس جزءاً من وقته الثمين في مراجعة بعض الكتب والاطلاع على المؤلفات التي كتبت في هذا الداء لعله يهتدي الى سبيل لخلاصها . ورأت هي من اهتمامه بأمرها فزادت به ثقةً وارتاحت الى المداومة على استشارته والعمل بأمره لعلها تجد على يديه شفاء لدائها

ولعل كثرة اهتمام جاك بأمر عليلته قد احدثت في نفسه ميلاً لها غير عادي وشغل اشفاقه عليها جزءاً من قلبه فصار يفكر فيها اينما ذهب ويتصور جمالها الذابل امام عينيه حيثما سار ويشاهد خيالها يستغيث به في كل وقت وكل حين . حتى انه

كلما خطر له خاطر عن الزواج تمنى لو تكون شريكة حياته المنتظرة على مثالها في كل شيء الا المرض

وفي عصر يوم من ايام الربيع الجميل خرج جاك الى متنزه يمتع نظره بجمال الطبيعة وهو يفكر بعليلته التي اصبحت شغله الشاغل اذ طرق أذنه صوت سعال ضعيف فتلفت حوله فرآى (مادلين) تسير وحدها وقد أحنى الضعف ظهرها واصفر وجهها وغارت عيناها وذبلت خدودها

فابطأ في المسير وأسرعت حتى تلاقيا وحياها وحيته ثم قال لها :

— كيف تجدين نفسك الآن

— لست ادري ولكني اتمنى ان اشفى سريعاً أو أموت سريعاً لاني كرهت حياة كلها مرض

— صبراً يا سيدتي ولا تيأسي

ولعل مادلين قد رأت من جاك اليوم وهو يسير الى جانبها تحدثه ويحدثها صاحباً وسميراً اكثر مما رأت فيه حكيماً وطبيباً . أو أنها رأت فيه حكيم أرواح اكثر مما رأت فيه حكيم أبدان ورأت ان تشكو له بعض آلام نفسها كما تشكو اليه آلام جسمها فقالت له وهي تتأوه :

— والى متى اصبر ؟ انظر يا سيدي الى هؤلاء الاقوام التي تسير امامنا فان بعضهم يحيني ولا يبطىء معي لحظة واحدة مخافة العدوى . وبعضهم يرمقني بالسلام من بعيد وهو يتبسم اما اشفاقاً عليَّ او شماتة بي والبعض يمر الى جانبي بلا سلام ولا كلام متناسياً اياماً كنا في معهد التعليم سوية — هل يكون المرض موضوع مذلة وسبب احتقار ام هو ذنب جنيته أستحق عليه ان يقطعني جميع أقاربي وأصحابي وأحبابي حتى اصبحت من بعد وفاة والدي طريدة شريدة

فلا انيس اليه منتهى جزلي ولا صديق اليه مشتكى حزني

قالت ذلك بصوت محزن ذاب له قلب جاك ثم تنهدت الصعداء واستأنفت الحديث فقالت : —

— كم اسر كلما أرى صديقين متحابين يسيران جنباً الى جنب وكم أحزن كلما تفرق عني اصدقائي وأحبائي حتى اخوان الصفاء منهم الذين يحبونني لمالي قد ابتعدوا عني ونبذوني نبذ النواة

— قالت ذلك وسكتت قليلاً تتردد بين ان تتم حديثها او تكتم البقية ولكنها عمدت ان تتهز هذه الفرصة لتشكو (اذ لا بد من الشكوى) كل ما في نفسها الى الرجل الوحيد الذي لم يهرب منها ولم يشمئز او يحتقرها لمرضها فقالت :

— ليس هذا فقط بل كثير ما تقرب مني بعض الشبان طمعاً في الثروة التي تركها لي والدي والتي اتمنى زوالها في سبيل برء صدري مما كمن فيه من داء فيحومون حولي ولكن الى ان يسمعوا مني حقيقة مرضي فيفروا هاربين ويرجعوا مسرعين

ومما يؤلمني اكثر ياسيدي ان لي بين هذين الجنبين قلباً خفاقاً محباً ودوداً . احب كل الناس واتمنى لو كان لي ولو صديق واحد ابادله الاخلاص وابثه كل عواطفي هذه فيشفق على ما بقي من ايامي واموت والى جانبي انسان يحبني ويتألم من اجلي . آه يا سيدي كم تؤثر فيّ هذه الخواطر المؤلمة أكثر من المرض نفسه . قالت هذا وتنهدت طويلاً .

وقد احزنت جاك كلماتها هذه واثرت فيه تأثيراً شديداً واكثرت من همومه وافكاره وانشأت عنده خاطراً جديداً لم يكن يخطر له ببال وذلك انه كان يبحث عن صديق وفيّ يعتمدعليه عند الملمات وقد وجده في شخص مادلين

فقال لها بعد سكوته الطويل :

— أنتِ واهمة يا سيدتي فان كثيرين يحبونك جداً . ويتمنون صداقتك لولا ما يخافونه من اعراضك عنهم

فضحكت مادلين بصوت عال وهي تقول :

— كلماتك هذه لذيذة جداً ولكنها كالأحلام بعيدة المنال

— ألا تصدقيه .

— عبثاً تؤكد لي

— واذا أتيتك بالبرهان

— أي برهان عندي أجلى من وحدتي وانفرادي

— اذاً فاسمعي يا سيدتي . انا اعرف من يتمنى ابتسامة منكِ وتسر بن بمعاشرته . فاذا شئتِ اتيتك به في الغد

ليتك تقول الصدق ويكون لي صديق غير مكره على صداقتي . . . .

وقبل ان يفترقا قال لها جاك

— اذن للغد ياسيدتي

— للغد يا طبيبي الأمين

— وفي نفس مكاننا هذا

— حسن جداً

وفي الغد بكرت مادلين الى الملتقى . ولكنها لم تفكر في صديقها المنتظر اكثر مما فكرت في جاك . ولعل شعوراً قوياً جذاباً كان يستحضر لذاكرتها طيفه مذ فارقته بالامس . وقد شعرت بارتياح لمعاشرته دون سواه . وقد ابطأ قليلاً فعللت السبب على انهُ يبحث عن صديقه وتمنت لو اتى هو وسيان حضر الصديق أم لم يحضر واذ ذاك رأت جاك قادماً . . . . . وحده . . . . ومن رأى جاك كان يقرأ على وجههِ انهُ لم يذق الكرى بالامس وانهُ قضى ليلته بطولها مفكراً . . على عينيه علامة اهتمام كبير كمن يكون على وشك ان يبت امراً في مسئلة ذات شأن

وحياها فحيته وما اسرع ما سألته

— اين صديقك ؟ ألم أقل لك ؟

فأجابها على الفور :

— هوذا وأشار الى شخصهِ

فحملقت فيه مادلين لتعرف ما القصد من كلامه وقبل ان تبادره بالجواب قاطعها قائلاً :

— اسمعي يا مادلين . اني مذ عرفتك أحببت فيكِ اخلاقكِ العالية ونفسك

الكريمة الأبية وزاد حبي فيك اشفاقي عليك وتألمي من اجلكِ . وكنت كلما خطرت لي فكرة الزواج تمنيت ان تكون شريكة حياتي على مثالكِ ولكني عدت وسألت نفسي لماذا لا تكون مادلين نفسها ؟ على اني كنت أهابك أن أفاتحك في ذلك . حتى سمعت رغبتك بالامس في صديق يشاركك حياتك البائسة ما بقي من ايامك . أليس كذلك ؟ فلماذا لا اكون انا ذلك الصديق ؟ قد عملت الفكرة بالامس فوجدت من نفسي تصميماً على ذلك فلا تردي طلبي يا سيدتي وهذي يدي فلا ترفضيها .

فمدت مادلين يدها وتناولت بها يد جاك وهي تقول

— لي الشرف ان تكون صديقي كما كنت طبيبي

— بل زوج . . . .

— لا تطمع في ذلك يا سيدي لاني اضن على نفسي بشبابك ان اصيره تعساً بسببي وأنا ايامي معدودة ولا أمل لي في أن اتزوج الا القبر . فأخذ جاك يقنعها شيئاً فشيئاً انها على وشك ان تشفى تماماً وانه لولا وثوقه بشفائها لما اقدم على التزوج بها

فقبلت يده وقبّلَ يدها

ولم يمض عليهما شهران حتى كانا زوجين ولا حولان حتى كانا أبوين

. . . . . .

وقد اعتنى جاك بمادلين بعد الزواج بها عناية هائلة وسهر على راحتها سهرًا لا يُعرف معهُ مال ولا كال حتى أوقف سير الداء . وساعده على تخفيف ألمها تلك الحياة الجديدة التي بعثت ضياء السرور في فؤاد مادلين خصوصاً بمولودتها التي تمنت لو تعيش من اجلها

ولكن مرضها وان أوقف سيره عهداً فقد عاد الى الاستفحال وانتقل من الدور الثاني الى الدور الثالث

وفي مساء ليلة قارصة البرد كانت مادلين منطرحة على فراشها وعلى سريرها مهابة غير عادية هي مهابة الموت . وكان الى جانبها جاك يبكي بكاء مراً وبينهما طفلة في الحول الاول من عمرها تقبلها الام ثم تعطيها لابيها ليقبلها وهي تقول لهُ : هذه

رابطة حبنا الوحيدة وثمرة زواجنا

فقبلها جاك ثم طرحها جانباً لكي يقبل امها فاندفعت مادلين الى صدره وظلت منطرحة بين ذراعيه يقبلها وتقبله وقد امتزجت انفاسهما ومدامعهما وعلا شهيقهما وهما متعانقين بشدة . فهو خائف عليها ان يخطفها الموت من بين يديه و يذهب بها الى الابدية .وهي خائفة ان تذهب اليها وحدها وقد اصبحت تخاف الموت جداً بعد ان تناست بزواجها وعيشها الرغيد الذي تمتعت به الثلاث سنوات الاخيرة من حياتها آلامها الماضية وداءها الدفين . ولم يكن اصعب من آلام مادلين وهي تموت في ريعان صباها يربطها بالعالم شباب نضر وزوج حنون قد ضحى كل نفيس لديه من اجلها وتزوج بها مخاطراً بحياته في سبيل اسعادها وقد اسعدها . وفتاة لم تعرف امها بعد وستبحث عنها يوماً ما فلا تجدها

ثم عادت وتناولت فتاتها وقدمتها لجاك وهي تقول :

ألم أقل لك من قبل ياجاك ان ايامي معدودة فكذبت عليَّ لكي تسعدني ولكن لتشقى انت . انا لست نادمة لاني لم اكن لاعيش أهنأ مما عشت معك بل لم اكن احلم بالهناء الذي سربلتني به ولكني آسفة ان اترك لك هذه الفتاة عالة تتعبك كما اتعبتك امها . هذه الصلة الوحيدة التي تربطنا ببعض بعد مماتي فاحتفظ بها وربها لتكون مثل ابيها . اسهر عليها لانها لن تجد لها بعد امها سنداً سواك . فهي لن تجد لها اماً . اما انت فستجد لك الف عقيلة تتمنى ان . . . .

قالت ذلك وقد لاحظت بالحال على وجه جاك التأثر العظيم الذي احدثه كلامها في نفسه . وقاطعها جاك قائلاً

انك لم تسيئي اليَّ من يوم عرفتك اكثر من اساءتك اليَّ الان ولكني اسامحك والتمس لك عذراً . انت ظننت ياحياتي اني ما تزوجت بك الا لالهو بشبابك وامتع نفسي بجمالك واعبث بمالك . ولكن ما طمعت بشيء من ذلك . انما طمعت في آدابك العالية ومعاشرتك اللذيذة . اردت بدل ان اسعى في طلب صديق او خل وفيّ ان اقضي الى جانبك مابقي من ايامك حيث اجد فيك اختاً وفية وصديقة

حميمة . ولكني وجدت فيك اكثر من ذلك . وجدت فيك زوجة ليس لها مثيل يحزن عليها العمر كله . وها انا اعاهدك مقسماً بحبنا الشريف الطاهر والله شاهد على ما اقول ان لا اكون لسواك من بعدك . وحسبي ياحياتي من هناء الزوجية ما متعتني به لاني مهما حاولت البحث فلن اجد فتاة على مثالك ومن عرف الذهب النقي يا مادلين لن تعجبه النحاس او الفضة . آه واحسرتاه

— تشجع يا عزيزي ولا تحزن

— ان ضميري مرتاح جداً يا مادلين اني اسعدتك في آخر حياتكِ بقدر ما استطيع وعزائي الوحيد فيكِ ياعزيزتي اني سأكرس ما بقي من حياتي في خدمة فتاتنا . سأسعدها كما اسعدت امها وسأدعها مادلين من هذه الساعة لاني لم أجد اسماً الذّ من ان ادعو ابنتي به

هجم الهزيع الاخير من الليل فغلبهما النوم وهما لم يعلما كيف اتاهما ولا في اية ساعة . وفي الصباح استيقظ جاك مفزوعاً أثر رؤيا شاهد فيها مادلين في ثياب زفافها حولها الاصحاب والاحباب يزفونها كالعروس وقد رآها على اجمل صورة لولا ما شاهده على وجهها من اصفرار غير عادي . على ان ثغرها كان باسماً ينظر اليه طول الوقت . . . . .

ولما تنبه من منامه نظر مادلين الى جانبه على نفس الهيئة التي شاهدها بها في الحلم لولا اختلاف الملابس . اما وجهها فكان باسماً وعينيها التي يخال للناظر انها مملوءة شكراً وممنونية كانت تنظر اليه . . . . . .

الاّ انها كانت جثة هامدة

. . . . . .

مر عام كامل من تاريخ هذا الحادث فظن الناس ان جاك لا يلبث ان يخلع ملابس الحداد ويتسربل بما يناسب زيه وشبابه . وان يجدّ في البحث عن عروس . ولكن جاك كذب كل هذه الظنون لانهُ بقي ولم يغير لون ملابسه بل لبس السواد حتى مماته ، وبقي وفياً لزوجته ولم ينسها يوماً واحداً ولا عرف بعدها عزاء ولا سلواناً .

كان وفياً لها في حياتها فظل وفياً بعد مماتها . وكانت مادلين الفتاة تحب ابوها حباً جماً وتعجب بوفائه وتحاول جهدها ان تجعله سعيداً ذلك الذي اسعدها وامها من قبلها . وكانت المسكينة مصابة بداء امها قد ورثته عنها

ولما بلغت العشرين ربيعاً طلبها احد الشبان من ابيها فلما اراد هذا ان يعرف رأيها قالت لهُ :

— كنت اود ان لا ارفض لك مطلباً الا هذا

— ولماذا يا ولدي

— لاني لا احب ان اتزوج

— رأي فاسد جداً . هل من سبب وجيه

فبكت مادلين لما رأت ان اباها لم يقتنع فانها ملزمة ان تتكلم . اما هو فانحنى عليها وقبلها من جبينها وضمها الى صدره وقد رأى فيها في هذه الساعة التشابه الغريب الذي كان بينها وبين مادلين امها . وقال لها :

— قولي يا ولدي لماذا تخفي عني ما في صدرك ؟

— حاشى يا والدي العزيز ولكن ألا تعرف باني مريضة قد ورثت السل عن أمي ؟

وكان لشكواها هذه وقعاً شديداً على فؤاد ابيها ولكنه تجلد وقال :

— ولكن امك تزوجت

— ولكن هل كل الرجال اوفياء مثلك يا والدي

فاسكت جوابها جاك اما هي فاستأنفت الكلام :

على انك يا والدي علمتني وفاءك فـأكون وفية لك كما كنت وفياً لامي وسأوقف نفسي لخدمتك واكرس قلبي لمحبتك الوالدية جزاء صنيعك مع أمي

قالت ذلك وقد ملأت الدموع عينيها وأثر الموقف في قلب جاك تأثيراً أذابه وصعدت الدموع الى عينيه فبكى الى جانب فتاته التي لما تمالكت نفسها قليلاً عادت الى الكلام فقالت :

سأعمل مثل امي وأبقى تحت ظل حنانك ما بقى من ايام حياتى — ومع ذلك أليست لي الحرية ان أقبل او أرفض يد خطيبي فهذا جوابي :

اني سأرفضه بتاتاً وسأرفض كل يد تمد في طلبي

. . . . . .

وحافظت مادلين على عهدها ووفت بوعدها ولكن المنية لم تمهلها طويلاً بل انقضت عليها في الثالثة والعشرين من حياتها

وكانت هذه المصيبة اشد على قلب جاك من وفاة امها فدك قلبه الحزن وطحن فؤاده الجزع ووافاهما سريعاً مبكياً على الوفاء في شخصه ع . ى . ع

الزوجة

(بقلم حضرة حنين افندي بادير)

« ان عمل المرأة — الذي لا يمكن ليد الدهر
« التداخل فيه — هو ان تجدد قلب رجلها . فالرجل
« يحميها وينعشها بالغذاء وهي مقابل ذلك تسعده
« وتنعشه بالحب » جول ميشليه
« كان الزواج في اول الأمر مسئلة غريزية كما في
« الحيوان . فلما ارتقى المجموع الانساني انقلبت هذه
« «الغريزة» الى «حب» . ولكن اصبح الزواج
« الآن لا يعد رباطاً طبيعياً بين الرجل والمراة . بل
« صار شركة مالية بحتة . وصار كلهما يفكر من
« الصغر في ان أهم مقاصد الزواج ليس الحصول على
« شريك « عاقل » بل على شريك « مثرٍ »
جون ستيفنسن

كتبت السيدة « إمّا دراك » في كتابها « ماذا يجب على الزوجة معرفته » تقول : ما هي علاقة المرأة بزوجها ؟ — هذا هو السؤال الذي يجول في خواطر الفتيات عند إقدامهنّ على الزواج. ولهذا رأيت انى اكتب للفتيات لأعلمهنّ بأن المرأة مساوية لزوجها ولكنها ليست مناظرة له وانها مكملة وليست مراوقة له . وما دامت